

«... المهم هو أن شخصيات حلیم بركات في رواياته السابقة تستمر في الحياة عبر هذه الرواية، مثلما يستمر المجتمع العربي في مشكلاته وتخلفه. ومثلما ينتقل المجتمع من مرحلة إلى أخرى، فإن الشخصيات تنتقل من وضع إلى وضع» (ص: 65).

كما تبدو هذه المقارنة المرآوية في دراسته لرواية «المهزومون» لهاني الراهب، إلى الحد الذي نراه يعتبر هذه الرواية سيرة تسجل التخلخل الحاصل في المجتمع العربي. والناقد يقول بهذا الصدد:

«إن وضع التخلخل والتمزق السائد في الرواية، كان يعكس آنذاك، التخلخل والتمزق اللذين كانا يجريان في تركيبة المجتمع السوري وفي بنيته (...). لقد رافقت روايات هاني الراهب هذا التخلخل وهذا الصعود (يقصد صعود البرجوازية الصغيرة) وكتب سيرته الداخلية» (ص: 89).

وإذا كانت مسألة مقارنة المحتوى الروائي بالواقع تفضي بالضرورة إلى الوقوع في شرك النظرة الإنعكاسية، فإن تحليل المحتوى بمعزل عن ربطه بالواقع يفضي إلى اكتشاف إيديولوجيا الكاتب. وقد قدم الناقد محمد كامل الخطيب في خاتمة كتابه فهماً قريباً لهذه المسألة إلا أنه ظل كما رأينا خاضعاً لفكرة الإنعكاس في مجموع «التحليل».

إن الناقد قد يلجأ في بعض الأحيان، وهو منهمك في «التحليل»، إلى التذكير بأن الرواية ليست صورة حرفية للواقع، وهو تذكير له قيمة نظرية فقط، لأنه لا ينعكس أبداً على واقع الممارسة النقدية، ويمكن اعتباره عنصراً تمويهاً موجهاً إلى القارئ، سواء كان قارئاً عادياً أو متخصصاً، غرضه أن يخفف التنافر الحاصل بين الجانب النظري، والجانب التطبيقي. يتحدث عن إحدى روايات حلیم بركات فيقول:

«فعالم حلیم بركات ليس مجرد بناء روائي، تخيلي، يعكس أو يوازي - فقط - حركة الواقع، بل حركة الواقع الفعلي تدخل في نسيج هذا العالم الروائي عبر أحداث التاريخ الواقعية، هذه الأحداث التي تشارك في نسج أحداث العالم الروائي وتكوينه مثلما هي تكون الواقع الفعلي كذلك» (ص: 52).

ونلاحظ أن الناقد لا ينفي الانعكاس كلياً، ولكنه يضيف إليه ما سماه «دخول» الواقع الفعلي في نسيج الرواية. وعندما نتأمل كلامه في هذه الفقرة كلها نجد كلاماً يصعب تحديد دلالاته المركزية بل إنه يبدو أقرب إلى أن يرتد في معناه العام إلى مفهوم الإنعكاس نفسه، لأن «دخول» الواقع إلى الرواية لا يتميز بشيء عن انعكاس الواقع على عالم الرواية، لأن الدخول لا يمكن أن يتحقق بالمعنى الحرفي للكلمة، إذا بقي المعنى المجازي قائماً دائماً.

هناك بعض «الاشراقات النظرية» التي تأتي أيضاً في سياق «تحليل» الروايات